❁ ❁ ❁

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾.

يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟! قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا زكريا بن يحيى الوقار المصري، حدثني خالد بن عبد الدايم، عن ابن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ عن الطاعة، ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾: حتى يأتيكم الموت». وقال الحسن البصري: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ في الأموال والأولاد. وفي صحيح البخاري، في «الرقاق» منه: وقال: أخبرنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ يعني: «لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب». وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة: سمعت قتادة يحدث عن مُطَرِّف ـ يعني ابن عبد الله بن الشِّخِّير ـ عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾، يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟». ورواه مسلم والترمذي والنسائي، من طريق شعبة، به. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا سُوَيد بن سعيد، حدثنا حفص بن ميسرة، عن العلاء، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي؟ وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس». تفرد به مسلم. وقال البخاري: حدثنا الحُمَيدي، حدثنا سفيان، حدثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله». وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثنا قتادة، عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان: الحرص والأمل». أخرجاه في الصحيحين. وذكر الحافظ ابن عساكر، في ترجمة الأحنف بن قيس ـ واسمه الضحاك ـ أنه رأى في يد رجل درهماً فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي. فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر أو ابتغاء شكر. ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقته فالمالُ لَكْ

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة قال: صالح بن حيان حدثني عن ابن بريدة في قوله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾. قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، في بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثلُ فلان بن فلان، وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور. فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ ـ يشيرون إلى القبر ـ ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾، لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل. وقال قتادة: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾: كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم. والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال: «لا بأس، طهور إن شاء الله». فقال: قلت: طَهُور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: «فنَعَم إذاً». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، أخبرنا حكام بن سلم الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن الحجاج، عن المنهال، عن زر بن حُبَيش، عن علي

قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾. ورواه الترمذي عن أبي كُرَيب، عن حكّام بن سلم، به، وقال: غريب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن داود العُرضي، حدثنا أبو المليح الرقي، عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فلبث هُنَيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله. قال أبو محمد: يعني أن يرجع إلى منزله ـ إلى جنة أو نار ـ. وهكذا ذُكر أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فقال: بُعث اليوم ورب الكعبة. أي: إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره. وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾: قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد. وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ يعني: الكفار، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ يعني: أيها المؤمنون. وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ أي: لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر. ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ توعَّدهم بهذا الحال، وهي رؤية النار، التي إذا زفرت زفرة خرّ كل ملك مقرب، ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك. وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ أي: ثم لتسئلن يومئذٍ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقري، حدثنا عبد الله بن عيسى أبو خالد الخزاز، حدثنا يونس بن عبيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: خرج رسول الله ﷺ عند الظهيرة، فوجد أبا بكر في المسجد فقال: «ما أخرجك هذه الساعة؟» قال: أخرجني الذي أخرجك يا رسول الله. قال: وجاء عمر بن الخطاب فقال: «ما أخرجك يا ابن الخطاب؟» قال أخرجني الذي أخرجكما. قال: فقعد عمر، وأقبل رسول الله ﷺ يحدثهما، ثم قال: «هل بكما من قوة، تنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان طعاماً وشراباً وظلاً؟» قلنا: نعم. قال: «مُروا بنا إلى منزل ابن التَّيهان أبي الهيثم الأنصاري». قال: فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا، فسلم واستأذن ـ ثلاث مرات ـ وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام، تريد أن يزيدها رسول الله ﷺ من السلام، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم، فقالت: يا رسول الله، قد ـ والله ـ سمعت تسليمك، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك. فقال لها رسول الله ﷺ: «خيراً». ثم قال: «أين أبو الهيثم؟ لا أراه». قالت: يا رسول الله، هو قريب ذهب يستعذبُ الماء، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء الله، فبسطت بساطاً تحت شجرة، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرت عيناه بهم، فصعد على نخلة فصرم لهم أعذاقاً، فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ يا أبا الهيثم». قال: يا رسول الله، تأكلون من بُسره، ومن رطبه، ومن تَذْنُوبه، ثم أتاهم بماء فشربوا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه». هذا غريب من هذا الوجه.

وقال ابن جرير: حدثني الحُسَين بن علي الصدائي، حدثنا الوليد بن القاسم، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان، إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «ما أجلسكما ها هنا؟» قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: «والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره». فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم. فعلق قِرْبَتَه بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذْق، فقال النبي ﷺ: «ألا كنت اجتنيت»؟ فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم. ثم أخذ الشفرة، فقال النبي ﷺ: «إياك والحلوب؟» فذبح لهم يومئذٍ، فأكلوا. فقال النبي ﷺ: «لتسئلن عن هذا يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم». ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان، به. ورواه أبو يعلى وابن ماجه، من حديث المحاربي، عن يحيى بن عُبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بكر الصديق، به. وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحو من هذا السياق وهذه القصة. وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج، حدثنا حشرج، عن أبي نُصرة، عن أبي عسيب ـ يعني مولى رسول الله ـ قال: خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمر بي، فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى أتى حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أطعمنا». فجاء بِعذْق فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، وقال: «لتسئلن عن هذا يوم القيامة». قال: فأخذ عُمَرُ العذْقَ فضرب به الأرض حتى تناثر البُسرُ قبل رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ ، قال:

«نعم، إلا من ثلاثة: خرقة لف بها الرجل عورته، أو كسرة سدَّ بها جوعته، أو حجر تدخَّل فيه من الحر والقر». تفرد به أحمد. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، حدثنا عمار، سمعت جابر بن عبد الله يقول: أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً، وشربوا ماء، فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه». ورواه النسائي، من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن جابر، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا محمد بن عمرو، عن صفوان بن سليم، عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، قالوا: يا رسول الله، عن أي نعيم نُسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون». وقال أحمد: حدثنا أبو عامر، عبد الملك بن عمرو، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا معاذ بن عبد الله بن خُبَيب، عن أبيه، عن عمه قال: كنا في مجلس فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله، نراك طيب النفس. قال: «أجل». قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم». ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن خالد بن مخلد، عن عبد الله بن سليمان، به. وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا شبابة، عن عبد الله بن العلاء، عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزم الأشعري قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه ـ يعني يوم القيامة ـ العبد من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحّ لك جسمك، ونُرْوِكَ من الماء البارد؟». تفرد به الترمذي. ورواه ابن حبان في صحيحه، من طريق الوليد بن مسلم، عن عبد الله بن العلاء بن زبير، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن يحيى بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لما نزلت ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾، قالوا: يا رسول الله، لأي نعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: «إن ذلك سيكون». وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث سفيان ـ هو ابن عيينة ـ به. ورواه أحمد عنه، وقال الترمذي: حسن. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني، حدثنا حفص بن عمر العَدَني، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾، قال الصحابة: يا رسول الله، وأي نعيم نحن فيه، وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: قل لهم: أليس تحتذون النعال، وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن ابن أبي ليلى ـ أظنه عن عامر ـ عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾، قال: «الأمن والصحة». وقال زيد بن أسلم، عن رسول الله ﷺ: «﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ يعني: شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم». رواه ابن أبي حاتم بإسناده المتقدم، عنه في أول السورة. وقال سعيد بن جبير: حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: نعيم الغداء والعشاء، وقال أبو قلابة: من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي. وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾، قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وثبت في صحيح البخاري، وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا القاسم بن محمد بن يحيى المروزي، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا أبو حمزة، عن ليث، عن أبي فزارة، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فوق الإزار، وظل الحائط، وخُبْز، يحاسب به العبد يوم القيامة، أو يسأل عنه»، ثم قال: لا نعرفه إلا بهذا الإسناد. وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزُ وعفان قالا: حدثنا حماد ـ قال عفان في حديثه ـ: قال إسحاق بن عبد الله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله، ﷻ ـ قال عفان: يوم القيامة ـ: يا ابن آدم، حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء، وجعلتك تَرْبَع وترأس، فأين شكر ذلك؟». تفرد به من هذا الوجه.

آخر تفسير سورة «التكاثر» ولله الحمد والمنة

(١٠٢) سورة التكاثر مكية
وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر ﴾ فيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإلهاء الصرف إلى اللهو. واللهو الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى، ومعلوم أن الانصراف إلى الشيء يقتضي الإعراض عن غيره، فلهذا قال أهل اللغة ألهاني فلان عن كذا أي أنساني وشغلني، ومنه الحديث « أن الزبير كان سمع صوت الرعد لهى عن حديثه » أي تركه وأعرض عنه، وكل شيء تركته فقد لهيت عنه، والتكاثر التباهي بكثرة المال والجاه والمناقب يقال تكاثر القوم تكاثراً إذا تعادلوا ماهم من كثرة المناقب، وقال أبو مسلم: التكاثر تفاعل من الكثرة والتفاعل يقع على أحد وجوه ثلاثة يحتمل أن يكون بين الإثنين فيكون مفاعله، ويحتمل تكلف الفعل تقول تكارهت على كذا إذا فعلته وأنت كاره، وتقول تباعدت عن الأمر إذا تكلفت العمى عنه وتقول تغافلت، ويحتمل أيضاً الفعل بنفسه كما تقول تباعدت عن الأمر أي بعدت عنه، ولفظ التكاثر في هذه الآية يحتمل الوجهين الأولين، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه كم من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه (أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً) ويحتمل تكلف الكثرة فان الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله، واعلم أن التفاخر والتكاثر شيء واحد ونظير هذه الآية قوله تعالى (وتفاخر بينكم).

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن التفاخر إنما يكون بإثبات الإنسان نوعاً من أنواع السعادة لنفسه، وأجناس السعادة ثلاثة:

(فأحدها) في النفس (والثانية) في البدن (والثالثة) فيما يطيف بالبدن من خارج، أما التي في النفس فهي العلوم والأخلاق الفاضلة وهما المرادان بقوله حكاية عن إبراهيم (رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين) وبهما ينال البقاء الأبدي والسعادة السرمدية.

وأما التي في البدن فهي الصحة والجمال وهي المرتبة الثانية، وأما التي تطيف بالبدن من خارج فقسمان: (أحدهما) ضروري وهو المال والجاه والآخر غير ضروري وهو الأقرباء والأصدقاء

وهذا الذى عددناه فى المرتبة الثالثة إنما يراد كله للبدن بدليل أنه إذا تألم عضو من أعضائه فإنه يجعل المال والجاه فداء له .

وأما السعادة البدنية فالفضلاء من الناس إنما يريدونها للسعادة النفسانية فإنه ما لم يكن صحيح البدن لم يتفرغ لاكتساب السعادات النفسانية الباقية ، إذا عرفت هذا فنقول : العاقل ينبغى أن يكون سعيه فى تقديم الأهم على المهم ، فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأخس المراتب من أسباب السعادات ، والاشتغال به يمنع الانسان من تحصيل السعادة النفسانية بالعلم والعمل ، فيكون ذلك ترجيحاً لأخس المراتب فى السعادات على أشرف المراتب فيها . وذلك يكون عكس الواجب ونقيض الحق ، فلهذا السبب ذمهم الله تعالى فقال (ألهاكم التكاثر) ويدخل فيه التكاثر بالعدد وبالمال والجاه والأقرباء والأنصار والجيش ، وبالجملة فيدخل فيه التكاثر بكل ما يكون من الدنيا ولذاتها وشهواتها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ألهاكم) يحتمل أن يكون إخباراً عنهم ، ويحتمل أن يكون استفهاما بمعنى التوبيخ والتقريع أى أألهاكم ، كما قرىء أأنذرتهم وأأنذرتهم ، وإذا كنا عظاماً وأئذا كنا عظاماً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية دلت على أن التكاثر والتفاخر مذموم والعقل دل على إن التكاثر والتفاخر فى السعادات الحقيقية غير مذموم ، ومن ذلك ما روى من تفاخر العباس بأن السقاية بيده ، وتفاخر شيبة بأن المفتاح بيده إلى أن قال على عليه السلام : وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفى فصار الكفر مثلة فأسلمتم فشق ذلك عليهم فنزل قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج) الآية وذكرنا فى تفسير قوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) أنه يجوز للانسان أن يفتخر بطاعاته ومحاسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدى به ، فثبت أن مطلق التكاثر ليس بمذموم ، بل التكاثر فى العلم والطاعة والأخلاق الحميدة ، هو المحمود ، وهو أصل الخيرات ، فالألف واللام فى التكاثر ليسا للاستغراق ، بل للمعهود السابق ، وهو التكاثر فى الدنيا ولذاتها وعلائقها ، فإنه هو الذى يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته ، ولما كان ذلك مقرراً فى العقول ومتفقاً عليه فى الأديان ، لا جرم حسن إدخال حرف التعريف عليه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى تفسير الآية وجوه (أحدها) (ألهاكم التكاثر) بالعدد روى أنها نزلت فى بنى سهم وبنى عبد مناف تفاخروا أيهم أكثر فكان بنو عبد مناف أكثر فقال بنو سهم عدوا مجموع أحيائنا وأمواتنا مع مجموع أحيائكم وأمواتكم ، ففعلوا فزاد بنو سهم ، فنزلت الآية وهذه الرواية مطابقة لظاهر القرآن ، لأن قوله (حتى زرتم المقابر) يدل على أنه أمر مضى . فكأنه تعالى يعجبهم من أنفسهم ، ويقول هب أنكم أكثر منهم عدداً فماذا ينفع ، والزيارة إتيان الموضع ، وذلك يكون لأغراض كثيرة ، وأهمها وأولاها بالرعاية ترقيق القلب وإزالة حب الدنيا

فإن مشاهدة القبور تورث ذلك على ماقال عليه السلام « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإن فى زيارتها تذكرة » ثم إنكم زرتم القبور ، بسبب قساوة القلب والاستغراق فى حب الدنيا فلما انعكست هذه القضية ، لاجرم ذكر الله تعالى ذلك فى معرض التعجيب .

﴿ والقول الثانى ﴾ أن المراد هو التكاثر بالمال واستدلوا عليه بما روى مطرف بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه ، أنه عليه السلام كان يقرأ (ألها كم) وقال ابن آدم ، يقول مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، والمراد من قوله (حتى زرتم المقابر) أى حتى متم وزيارة القبر عبارة عن الموت ، يقال لمن مات زار قبره وزار رمسه ، قال جرير للأخطل :

زار القبور أبو مالك فأصبح الأم زوارها

أى مات فيكون معنى الآية : ألها كم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت ، وأنتم على ذلك ، يقال حمله على هذا الوجه مشكل من وجهين (الأول) أن الزائر هو الذى يزور ساعة ثم ينصرف ، والميت يبقى فى قبره ، فكيف يقال إنه زار القبر ؟ (والثانى) أن قوله (حتى زرتم المقابر) إخبار عن الماضى ، فكيف يحمل على المستقبل ؟ (والجواب) عن السؤال الأول أنه قد يمكث الزائر ، لكن لا بد له من الرحيل ، وكذا أهل القبور يرحلون عنها إلى مكان الحساب (والجواب) عن السؤال الثانى من وجوه (أحدها) يحتمل أن يكون المراد من كان مشرفاً على الموت بسبب الكبر ، ولذلك يقال فيه إنه على شفير القبر (وثانيها) أن الخبر عمن تقدمهم وعظاً لهم ، فهو كالخبر عنهم ، لأنهم كانوا على طريقتهم ، ومنه قوله تعالى (ويقتلون النبيين) (وثالثها) قال أبو مسلم : إن الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييراً للكفار ، وهم فى ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور .

﴿ القول الثالث ﴾ (ألها كم) الحرص على المال وطلب تكثيره حتى منعتم الحقوق المالية إلى حين الموت ، ثم تقول فى تلك الحالة : أوصيت لأجل الزكاة بكذا ، ولأجل الحج بكذا .

﴿ القول الرابع ﴾ (ألها كم التكاثر) فلا تلتفتون إلى الدين ، بل قلوبكم كأنها أحجار لا تنكسر البتة إلا إذا زرتم المقابر ، هكذا ينبغى أن تكون حالكم ، وهو أن يكون حظكم من دينكم ذلك القدر القليل من الانكسار ، ونظيره قوله تعالى (قليلا ما تشكرون) أى لا أقنع منكم بهذا القدر القليل من الشكر .

﴿ المسألة السادسة ﴾ أنه تعالى لم يقل (ألها كم التكاثر) عن كذا وإنما لم يذكره ، لأن المطلق أبلغ فى الذم لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع ، أى : ألها كم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات فى المعرفة والطاعة والتفكر والتدبر ، أو نقول إن نظرنا إلى ما قبل هذه الآية فالمعنى : الها كم التكاثر عن التدبر فى أمر القارعة والاستعداد لها قبل الموت ، وإن نظرنا إلى الأسفل فالمعنى ألها كم التكاثر ، فنسيتم القبر حتى زرتموه .

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾

أما قوله تعالى ﴿ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴾ فهو يتصل بما قبله وبما بعده أما الأول ، فعلى وجه الرد والتكذيب أي ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء من أن السعادة الحقيقية بكثرة العدد والأموال والأولاد ، وأما اتصاله بما بعده ، فعلى معنى القسم أي حقاً سوف تعلمون لكن حين يصير الفاسق تائباً ، والكافر مسلماً ، والحريص زاهداً ، ومنه قول الحسن لا يغرنك كثرة من ترى حولك فإنك تموت وحدك ، وتبعث وحدك ، وتحاسب وحدك ، وتقريره (يوم يفر المرء ، ويأتينا فرداً ، ولقد جئتمونا فرادى) إلى أن قال (وتركتم ما خولناكم) وهذا يمنعك عن التكاثر ، وذكروا في التكرير وجوهاً (أحدها) أنه للتأكيد ، وأنه وعيد بعد وعيد كما تقول للمنصوح أقول لك ، ثم أقول لك لا تفعل (وثانيها) أن الأول عند الموت حين يقال له لا بشرى والثاني في سؤال القبر : من ربك ؟ والثالث عند النشور حين ينادي المنادي ، فلان شقي شقاوة لاسعادة بعدها أبداً وحين يقال (وامتازوا اليوم) (وثالثها) عن الضحاك سوف تعلمون ، أيها الكفار (ثم كلا سوف تعلمون) أيها المؤمنون ، وكان يقرؤها كذلك ، فالأول وعيد والثاني وعد (ورابعها) أن كل أحد يعلم قبح الظلم والكذب وحسن العدل والصدق لكن لا يعرف قدر آثارها ونتائجها ، ثم إنه تعالى يقول ، سوف تعلم العلم المفصل لكن التفصيل يحتمل الزائد فمهما حصلت زيادة لذة ، ازداد علماً ، وكذا في جانب العقوبة فقسم ذلك على الأحوال ، فعند المعاينة يزداد ، ثم عند البعث ، ثم عند الحساب ، ثم عند دخول الجنة والنار ، فلذلك وقع التكرير (وخامسها) أن إحدى الحالتين عذاب القبر والأخرى عذاب القيامة ، كما روى عن ذر أنه قال كنت أشك في عذاب القبر ، حتى سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول ، إن هذه الآية تدل على عذاب القبر ، وإنما قال (ثم) لأن بين العالمين والحياتين موتاً .

قوله تعالى : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اتفقوا على أن جواب لو محذوف ، وأنه ليس قوله (لترون الجحيم) جواب لو ويدل عليه وجهان (أحدهما) أن ما كان جواب لو فنفيه إثبات ، وإثباته نفي ، فلو كان قوله (لترون الجحيم) جواباً للو لوجب أن لا تحصل هذه الرؤية ، وذلك باطل ، فإن هذه الرؤية واقعة قطعاً ، فإن قيل المراد من هذه الرؤية رؤيتها بالقلب في الدنيا ، ثم إن هذه الرؤية غير واقعة قلنا ترك الظاهر خلاف الأصل (والثاني) أن قوله (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) إخبار عن أمر سيقع قطعاً ، فعطفه على ما لا يوجد ولا يقع قبيح في النظم ، واعلم أن ترك الجواب

فى مثل هذا المكان أحسن ، يقول الرجل للرجل لو فعلت هذا أى لكان كذا ، قال الله تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) ولم يجىء له جواب وقال (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) إذا عرفت هذا فنقول : ذكروا فى جواب لو وجوهاً (أحدها) قال الأخفش (لو تعلمون علم اليقين) ما ألهاكم التكاثر (وثانيها) قال أبو مسلم لو علمتم ماذا يجب عليكم لتمسكتم به أو لو علمتم لأى أمر خلقتم لاشتغلتم به (وثالثها) أنه حذف الجواب ليذهب الوهم كل مذهب فيكون التهويل أعظم ، وكأنه قال (لو علمتم علم اليقين) لفعلتم مالا يوصف ولا يكتنه ، ولكنكم ضلال وجهلة ، وأما قوله (لترون الجحيم) فاللام يدل على أنه جواب قسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد ، وأن ما أوعدا به مما لا مدخل فيه للريب وكرره معطوفاً بثم تغليظاً للتهديد وزيادة فى التهويل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى أعاد لفظ كلا وهو الزجر ، وإنما حسنت الإعادة لأنه عقبه فى كل موضع بغير ما عقب به الموضع الآخر ، كأنه تعالى قال لا تفعلوا هذا فإنكم تستحقون به من العذاب كذا لا تفعلوا هذا فإنكم تستوجبون به ضرراً آخر ، وهذا التكرير ليس بالمكروه بل هو مرضى عندهم ، وكان الحسن رحمه الله يجعل معنى (كلا) فى هذا الموضع بمعنى حقاً كأنه قيل حقاً (لو تعلمون علم اليقين) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (علم اليقين) وجهان (أحدهما) أن معناه علماً يقيناً فأضيف الموصوف إلى الصفة ، كقوله تعالى (ولدار الآخرة) وكما يقال مسجد الجامع وعام الأول (والثانى) أن اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة ، وقد سمى الموت يقيناً فى قوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين ، وزال الشك فالمعنى لو تعلمون علم الموت وما يلقى الإنسان معه وبعده فى القبر وفى الآخرة لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله ، وقد يقول الإنسان ، أنا أعلم علم كذا أى أتحققه ، وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب ، لأن العلوم أنواع فيصلح لذلك أن يقال علمت علم كذا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العلم من أشد البواعث على العمل ، فإذا كان وقت العمل أمامه كان وعداً وعظة ، وإن كان بعد وفاة وقت العمل فحينئذ يكون حسرة وندامة ، كما ذكر أن ذا القرنين لما دخل الظلمات [وجد خرزاً] ، فالذين كانوا معه أخذوا من تلك الخرز فلما خرجوا من الظلمات وجدوها جواهر ، ثم الآخذون كانوا فى الغم أى لما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا ، والذين لم يأخذوا كانوا أيضا فى الغم ، فهكذا يكون أحوال أهل القيامة

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى الآية تهديد عظيم للعلماء فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما فى التكاثر والتفاخر من الآفة لتركوا التكاثر والتفاخر ، وهذا يقتضى أن من لم يترك التكاثر والتفاخر لايكون اليقين حاصلا له فالويل للعالم الذى لايكون عاملا ثم الويل له .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى تكرار الرؤية وجوه (أحدها) أنه لتأكيد الوعيد أيضاً لعل القوم

ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

كانوا يكرهون سماع الوعيد فكرر لذلك ونون التأكيد تقتضى كون تلك الرؤية اضطرارية ، يعنى لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها لكنكم تحملون على رؤيتها شئتم أم أبيتم (وثانيها) أن أولهما الرؤية من البعيد (إذا رأتهم من مكان بعيد ، سمعوا لها تغيظاً) وقوله (وبرزت الجحيم لمن يرى) والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار (وثالثها) أن الرؤية الأولى عند الورود والثانية عند الدخول فيها ، وقيل هذا التفسير ليس بحسن لأنه قال (ثم لتسألن) والسؤال يكون قبل الدخول (ورابعها) الرؤية الأولى الوعد والثانية المشاهدة (وخامسها) أن يكون المراد لترون الجحيم غير مرة فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها لأنهم مخلدون فى الجحيم فكأنه قيل لهم ، على جهة الوعيد ، لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة فتزول عنكم الشكوك وهو كقوله (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت - إلى قوله - فارجع البصر كرتين) بمعنى لو أعدت النظر فيها ماشئت لم تجد فطوراً ولم يرد مرتين فقط ، فكذا ههنا ، إن قيل مافائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين ؟ قلنا لأنهم فى المرة الأولى رأوا لهباً لاغير ، وفى المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية ، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى ، والحكمة فى النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التفريع على ترك النظر لأنهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قراءة العامة لترون بفتح التاء ، وقرىء بضمها من رأيته الشيء ، والمعنى أنهم يحشرون إليها فيرونها ، وهذه القراءة تروى عن ابن عامر والكسائى كأنهما أرادا لترونها فترونها ، ولذلك قرأ الثانية (ثم لترونها) بالفتح ، وفى هذه الثانية دليل على أنهم إذا أروها رأوها وفى قراءة العامة الثانية تكرير للتأكيد ولسائر الفوائد التى عددناها ، واعلم أن قراءة العامة أولى لوجهين (الأول) قال الفراء قراءة العامة أشبه بكلام العرب لأنه تغليظ ، فلا ينبغى أن الجحيم لفظه (الثانى) قال أبو على المعنى فى (لترون الجحيم) لترون عذاب الجحيم ، ألا ترى أن الجحيم يراها المؤمنون أيضا بدلالة قوله (وإن منكم إلا واردها) وإذا كان كذلك كان الوعيد فى رؤية عذابها لا فى رؤية نفسها يدل على هذا قوله (إذ يرون العذاب) وقوله (وإذا رأى الذين ظلموا العذاب) وهذا يدل على أن لترون أرجح من لترون .

قوله تعالى : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ فيه قولان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى أن الذى يسأل عن النعيم من هو ؟ فيه قولان .

﴿ أحدهما ﴾ وهو الأظهر أنهم الكفار ، قال الحسن لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار ويدل عليه وجهان (الأول) ما روى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية ، قال يارسول الله : أرأيت

أكله أكلتها معك فى بيت أبى الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أن تكون من النعيم الذى نسأل عنه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إنما ذلك للكفار ، ثم قرأ (وهل يجازى إلا الكفور) (والثانى) وهو أن ظاهر الآية يدل على ما ذكرناه ، وذلك لأن الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره ، فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذى ظنوه سبباً لسعادتهم هو كان من أعظم أسباب الشقاء لهم فى الآخرة .

﴿ والقول الثانى ﴾ أنه عام فى حق المؤمن والكافر واحتجوا بأحاديث ، روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة عن النعيم فيقال له . ألم نصحح لك جسمك ونروك من الماء البارد » وقال محمود بن لبيد لما نزلت هذه السورة قالوا يا رسول الله عن أى نعيم نسأل ؟ إنما هما الماء والتمر وسيوفنا على عواتقنا والعدو حاضر ، فعن أى نعيم نسأل ؟ قال « إن ذلك سيكون » وروى عن عمر أنه قال أى نعيم نسأل عنه يارسول الله وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال ﷺ « ظلال المساكن والأشجار والأخبية التى تقيكم من الحر والبرد والماء البارد فى اليوم الحار » وقريب منه « من أصبح آمناً فى سربه معافى فى بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » وروى أن شاباً أسلم فى عهد رسول الله ﷺ فعلمه رسول الله سورة ألهاكم ثم زوجه رسول الله امرأة فلما دخل عليها ورأى الجهاز العظيم والنعيم الكثير خرج وقال لا أريد ذلك فسأله النبى عليه الصلاة السلام عنه فقال ألست علمتنى (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) وأنا لا أطيق الجواب عن ذلك . وعن أنس لما نزلت الآية قام محتاج فقال هل على من النعمة شىء ؟ قال الظل والنعلان والماء البارد . وأشهر الأخبار فى هذا ما روى أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات ليلة إلى المسجد ، فلم يلبث أن جاء أبو بكر فقال ماأخرجك يا أبابكر ؟ قال الجوع ، قال والله ما أخرجنى إلا الذى أخرجك ، ثم دخل عمر فقال مثل ذلك ، فقال قوموا بنا إلى منزل أبى الهيثم ، فدق رسول الله ﷺ الباب وسلم ثلاث مرات فلم يجب أحد فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت امرأته تصيح كنا نسمع صوتك لكن أردنا أن تزيد من سلامك فقال لها خيراً ، ثم قالت بأبى أنت وأمى إن أبا الهيثم خرج يستعذب لنا الماء ، ثم عمدت إلى صاع من شعير فطحنته وخبزته ورجع أبو الهيثم فذبح عناقاً وأتاهم بالرطب فأكلوا وشربوا فقال عليه الصلاة والسلام « هذا من النعيم الذى تسألون عنه » وروى أيضاً « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن عمره وماله وشبابه وعمله » وعن معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن العبد ليسأل يوم القيامة حتى عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، عن لمس ثوب أخيه » واعلم أن الأولى أن يقال السؤال يعم المؤمن والكافر ، لكن سؤال الكافر توبيخ لأنه ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر وأطاع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى النعيم المسئول عنه وجوهاً (أحدها) ما روى أنه خمس : شبع

البطون وبارد الشراب ولذة النوم وإظلال المساكن واعتدال الخلق (وثانيها) قال ابن مسعود إنه الأمن والصحة والفراغ (وثالثها) قال ابن عباس إنه الصحة وسائر ملاذ المأكول والمشروب (ورابعها) قال بعضهم الانتفاع بإدراك السمع والبصر (وخامسها) قال الحسن بن الفضل تخفيف الشرائع وتيسير القرآن (وسادسها) قال ابن عمر إنه الماء البارد (وسابعها) قال الباقر إنه العافية، ويروى أيضاً عن جابر الجعفي قال : دخلت على الباقر فقال ما تقول أرباب التأويل في قوله (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم)؟ فقلت يقولون الظل والماء البارد فقال: لو أنك أدخلت بيتك أحداً وأقعدته في ظل وأسقيته ماء بارداً أتمن عليه ؟ فقلت لا، قال فالله أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه، فقلت ماتأويله ؟ قال النعيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنعم الله به على هذا العالم فاستنقذهم به من الضلالة، أما سمعت قوله تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا) الآية (القول الثامن) إنما يسألون عن الزائد عما لابد منه من مطعم وملبس ومسكن. (والتاسع) وهو الأولى أنه يجب حمله على جميع النعم، ويدل عليه وجوه : (أحدها) أن الألف واللام يفيدان الاستغراق (وثانيها) أنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى الباقي لا سيما وقد دل الدليل على أن المطلوب من منافع هذه الدنيا اشتغال العبد بعبودية الله تعالى (وثالثها) أنه تعالى قال (يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) والمراد منه جميع النعم من فلق البحر والإنجاء من فرعون وإنزال المن والسلوى فكذا ههنا (ورابعها) أن النعيم التام كالشيء الواحد الذي له أبعاض وأعضاء فإذا أشير إلى النعيم فقد دخل فيه الكل، كما أن الترياق اسم للمعجون المركب من الأدوية الكثيرة فإذا ذكر الترياق فقد دخل الكل فيه.

واعلم أن النعم أقسام فمنها ظاهرة وباطنة، ومنها متصلة ومنفصلة، ومنها دينية ودنيوية، وقد ذكرنا أقسام السعادات بحسب الجنس في تفسير أول هذه السورة، وأما تعديدها بحسب النوع والشخص فغير ممكن على ماقاله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) واستعن في معرفة نعم الله عليك في صحة بدنك بالأطباء، ثم هم أشد الخلق غفلة، وفي معرفة نعم الله عليك بخلق السموات والكواكب بالمنجمين، وهم أشد الناس جهلا بالصانع، وفي معرفة سلطان الله بالملوك، ثم هم أجهل الخلق، وأما الذي يروى عن ابن عمر أنه الماء البارد فمعناه هذا من جملته، ولعله إنما خصه بالذكر لأنه أهون موجود وأعز مفقود، ومنه قول ابن السماك للرشيد أرأيت لو احتجت إلى شربة ماء في فلاة أكنت تبذل فيه نصف الملك ؟ وإذا شرقت بها أكنت تبذل نصف الملك ؟ وإن احتبس بولك أكنت تبذل كل الملك ؟ فلا تغتر بملك كانت الشربة الواحدة من الماء قيمته مرتين؛ أو لأن أهل النار يطلبون الماء أشد من طلبهم لغيره، قال تعالى (أن أفيضوا علينا من الماء) أو لأن السورة نزلت في المترفين، وهم المختصون بالماء البارد والظل، والحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر عن جميع النعيم سواء كان مما لابد منه [أو لا]، وليس كذلك لأن كل ذلك يجب أن يكون

مصروفاً إلى طاعة الله لا إلى معصيته ، فيكون السؤال واقعاً عن الكل ، ويؤكده ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « لاتزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ؛ عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به » فكل النعيم من الله تعالى داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى أن هذا السؤال أين يكون ؟

﴿ فالقول الأول ﴾ أن هذا السؤال إنما يكون فى موقف الحساب ، فإن قيل هذا لا يستقيم ، لأنه تعالى أخبر أن هذا السؤال متأخر عن مشاهدة جهنم بقوله (ثم لتسئلن) وموقف السؤال متقدم على مشاهدة جهنم ؟ قلنا المراد من قوله (ثم) أى ثم أخبركم أنكم تسألون يوم القيامة ، وهو كقوله (فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة) إلى قوله (ثم كان من الذين آمنوا) .

﴿ القول الثانى ﴾ أنهم إذا دخلوا النار سئلوا عن النعيم توبيخاً لهم ، كما قال (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها) وقال (ما سلككم فى سقر) ولا شك أن مجىء الرسول نعمة من الله ، فقد سئلوا عنه بعد دخولهم النار ، أو يقال إنهم إذا صاروا فى الجحيم وشاهدوها ، يقال لهم إنما حل بكم هذا العذاب لأنكم فى دار الدنيا اشتغلتم بالنعيم عن العمل الذى ينجيكم من هذه النار ، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة الفائزين بالدرجات ، فيكون ذلك من الملائكة سؤالا عن نعيمهم فى الدنيا ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

١٠٢ — سورة التكاثر
(مكية وهى ثمان آيات)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ١٠٢ التكاثر

حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ١٠٢ التكاثر

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ١٠٢ التكاثر

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ١٠٢ التكاثر

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ ١٠٢ التكاثر

لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ١٠٢ التكاثر

﴿ سورة التكاثر مكية مختلف فيها وآيها ثمان ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (ألهاكم التكاثر) أى شغلكم التغالب فى الكثرة والتفاخر بها . روى
أن بنى عبد مناف وبنى سهم تفاخروا وتعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف فى الإسلام فقال كل
من الفريقين نحن أكثر منكم سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً فكثرهم بنو عبد مناف فقال بنو سهم
إن البغى إفنانا فى الجاهلية فعادونا بالأحياء والأموات فكثرهم بنو سهم والمعنى أنكم تكاثرتم بالأحياء
٢ (حتى زرتم المقابر) أى حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى التفاخم والتكاثر بالأموات فعبر عن بلوغهم
ذكر الموتى بزيارة القبور تهكما بهم وقيل كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان
يفتخرون بذلك وقيل المعنى ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم مضيعين أعماركم فى
طلب الدنيا معرضين عما يهمكم من السعى لأخراكم فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت وقرىء
٣ أألهاكم على الاستفهام التقريرى (كلا) ردع وتنبيه على أن العاقل ينبغى أن لا يكون معظم همه مقصوراً
٤ على الدنيا فإن عاقبة ذلك وخيمة (سوف تعلمون) سوء مغبة ما أنتم عليه إذا عاينتم عاقبته (ثم كلا سوف
تعلمون) تكرير للتأكيد وثم للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأول أو الأول عند الموت أو فى القبر
٥ والثانى عند النشور (كلا لو تعلمون علم اليقين) أى لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين أى كعلمكم
٦ ما تستيقنونه لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه فحذف الجواب للتهويل وقوله تعالى (لترون الجحيم) جواب

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ١٠٢ التكاثر

ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ١٠٢ التكاثر

٧ قسم مضمر أكد به له الوعيد وشدد به التهديد وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيما (ثم لترونها)
المشاهدة والمعاينة (عين اليقين) أى الرؤية التى هى النفس اليقين فإن علم المشاهدة أقصى مراتب اليقين
٨ (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) أى عن النعيم الذى ألهاكم الالتذاذ عن الدين وتكاليفه فإن الخطاب مخصوص بمن عكف همته على استيفاء اللذات ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين ويقطع أوقاته باللهو والطرب لايعبأ بالعلم والعمل ولايحمل نفسه مشاقهما فأما من تمتع بنعمة الله تعالى وتقوى بها على طاعته وكان ناهضاً بالشكر فهو من ذلك بمعزل بعيد وقيل الآية مخصوصة بالكفار . عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة التكاثر لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذى أنعم به عليه فى دار الدنيا وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما أخرج ابن أبي حاتم عن سعد بن أبي هلال يسمونها المقبرة وهي مكية قال أبو حيان عند جميع المفسرين وقال الجلال السيوطي على الاشهر ويدل لكونها مدنية وهو المختار ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بريدة فيها قال نزلت في قبيلتين من قبائل الانصار في بني حارثة وبني الحرث تفاخروا وتكاثروا فقالت احداها فيكم مثل فلان وفلان وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالاحياء ثم قالوا انطلقوا بنا الى القبور فجعلت احدى الطائفتين تقول فيكم مثل فلان تشير الى القبر ومثل فلان وفعل الآخرون مثل ذلك فانزل الله تعالى ألهاكم التكاثر الخ وأخرج البخاري وابن جرير عن أبي ابن كعب قال كنا نرى هذا من القرآن لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ثم يتوب الله على من تاب حتى نزلت ألهاكم التكاثر الخ وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن علي كرم الله تعالى وجهه ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التكاثر وعذاب القبر لم يذكر الا في المدينة كما في الصحيح في قصة اليهودية انتهى ولقوة الادلة على مدنيتها قال بعض الاجلة انه الحق. وآيها ثمان بالاتفاق وهي تعدل ألف آية من القرآن أخرج الحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم قالوا ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية قال أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق والديلمي عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ في ليلة ألف آية لقي الله تعالى وهو ضاحك في وجهه فقيل يا رسول الله من يقوى على ألف آية فقرأ سورة ألهاكم التكاثر الى آخرها ثم قال عليه الصلاة والسلام والذي نفسي بيده انها لتعدل ألف آية وذكر ناصر الدين بن الميلاق في سر ذلك أن القرآن ستة آلاف ومائتا آية وكسر فاذا تركنا الكسر كان الالف سدس القرآن وهذه السورة تشتمل على سدس من مقاصد القرآن فانها على ماذكره الغزالي ستة ثلاثة مهمة وهي تعريف المدعو اليه وتعريف الصراط المستقيم وتعريف الحال عند الرجوع اليه عز وجل وثلاثة متمة وهي تعريف أحوال المطيعين وحكاية أقوال الجاحدين وتعريف منازل الطريق وأحدها معرفة الآخرة المشار اليه بتعريف الحال عند الرجوع اليه تعالى المشتمل عليه السورة والتعبير على هذا المعنى بألف آية أفخم وأجل من التعبير بالسدس انتهى. والامر والله تعالى أعلم وراء ذلك ومناسبتها لما قبلها ظاهرة

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلْهَيكُمُ ﴾ أي شغلكم وأصل اللهو الغفلة ثم شاع في كل شاغل وخصه العرف بالشاغل الذي يسر المرء وهو قريب من اللعب ولذا ورد بمعناه كثيراً وقال الراغب اللهو ما يشغلك عما يعني ويهم وقيل وليس بذاك المراد به هنا الغفلة والمعنى جعلكم لاهين غافلين ﴿التَّكَاثُرُ﴾ أي التباري في الكثرة والتباهي بها بأن يقول هؤلاء نحن أكثر وهؤلاء نحن أكثر ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حتى اذا استوعبتم عدد الاحياء

صرتم الى المقابر وانتقلتم الى ذكر من فيها فتكاثرتم بالاموات فالغاية داخلة في المغيا وقد تقدم من سبب النزول ما يوضح ذلك.وعن الكلبي ومقاتل أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً فكثرتهم بنو عبد مناف فقالت بنو سهم ان البغي أهلكنا في الجاهلية فعادونا بالاحياء والاموات فكثرتهم بنو سهم وزيارة المقابر على ما تقدم على ظاهرها وأما على هذا فقد عبر بها عن بلوغهم ذكر الموتى كناية أو مجازا واستحسن جعله تمثيلا وفي الكشاف عبر بذلك عما ذكر تهكما بهم ووجهه بعض بأنه كانه قيل أنتم في فعلكم هذا كمن يزور القبور من غير غرض صحيح وبعض آخر بأن زيارة القبور للاتعاظ وتذكر الموت وهم عكسوا فجعلوها سببا للغفلة وهذا أولى والمعنى ألهاكم ذلك وهو لا يعنيكم ولا يجدي عليكم في دنياكم وآخرتكم عما يعنيكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعنى من كل مهم وحذف الملهى عنه للتعظيم المأخوذ من الابهام بالحذف والمبالغة في الذم حيث أشار الى أن ما بالهى مذموم فضلا عن الملهى عن أمر الدين وقيل المراد ألهاكم التكاثر بالاموال والاولاد الى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاشتياق اليها والتهالك عليها الى أتاكم الموت لاهم لكم غيرها عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لآخرتكم وصدره قد أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس وهو وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة عن الحسن وزيارة المقابر عليه عبارة عن الموت كما قال الشاعر

انى رأيت الضمد شيئاً نكرا ✫ لن يخلص العام خليل عشرا ✫ ذاق الضماد أو يزور القبرا

وقال جرير

زار القبور أبو مالك ✫ فأصبح ألأم زوارها

وفي ذلك اشارة الى تحقق البعث.يحكى أن اعرابيا سمع ذلك فقال بعث القوم للقيامة ورب الكعبة فان الزائر منصرف لا مقيم وعن عمر بن عبد العزيز انه قال لا بد لمن زار أن يرجع الى جنة أو نار وفيه أيضا اشارة الى قصر زمن اللبث في القبور والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع أو لتغليب من مات أولا أو لجعل موت آبائهم بمنزلة موتهم .ومما يقضى منه العجب قول أبي مسلم ان الله عز وجل يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييرا للكفار وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور وقيل هذا تأنيب على الاكثار من زيارة القبور تكثرا بمن سلف ومباهاة وتفاخرا به لا اتعاظا وتذكرا للآخرة كما هو المشروع ويشير اليه خبر ابى داود نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة ولا يخفى ان الآية بمعزل عن ذلك نعم لا كلام في ذم زيارة القبور للتفاخر بالمزور أو للتباهي بالزيارة كما يفعل كثير من الجهلة المنتسبين الى المتصوفة في زياراتهم لقبور المشايخ عليهم الرحمة هذا مع مالهم فيها من منكرات اعتقدوها طاعات وشنائع اتخذوها شرائع الى أمور تضيق عنها صدور السطور وقرأ ابن عباس وعائشة ومعاوية وأبو عمران الجوني وأبو صالح ومالك بن دينار وابو الجوزاء وجماعة آلهاكم بالمد على الاستفهام وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وابن عباس أيضا والشعبي وابى العالية وابن أبي عبلة والكسائي في رواية أألهاكم بهمزتين والاستفهام للتقرير ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن الاشتغال بما لا يعنيه عما يعنيه وتنبيه على الخطا فيه لان عاقبته وخيمة ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سوء مغبة ما أنتم عليه اذا عاينتم عاقبته والعلم بمعنى المعرفة المتعدية لواحد ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تكرير للتأكيد وثم للدلالة على أن الثانى أبلغ كما يقول العظيم لعبده أقول لك ثم أقول لك لاتفعل قيل ولكونه أبلغ نزل منزلة المغايرة فعطف والا فالمؤكد لا يعطف على المؤكد لما بينهما من شدة الاتصال وأنت تعلم ان المنع هو رأى اللغويين وقد صرح المفسرون والنحاة بخلافه.وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه الاول في القبور والثانى في النشور فلا تكرير والتراخي على ظاهره ولا كلام في العطف وقال الضحاك الزجر الاول ووعيده

الكافرين وما بعد للمؤمنين وهو خلاف الظاهر ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أي لو تعلمون مابين أيديكم علم الأمر المتيقن أي كعلمكم ماتستيقنونه من الامور فالعلم مضاف للمفعول واليقين بمعنى المتيقن صفة لمقدر وجوز أبو حيان كون الاضافة من اضافة الموصوف الى صفته أي العلم اليقين وفائدة الوصف ظاهرة بناء على أن العلم يطلق على غير اليقين وجواب لو محذوف للتهويل أي لو تعلمون كذلك لفعلتم مالا يوصف ولا يكتنه أو لشغلكم ذلك عن التكاثر وغيره أو نحو ذلك وقوله تعالى ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ جواب قسم مضمر أكد به الوعيد وشدد به التهديد وأوضح به ما أنذروه بعد ابهامه تفخيما ولايجوز أن يكون جواب لو الامتناعية لانه محقق الوقوع وجوابها لايكون كذلك وقيل يجوز ويكون المعنى سوف تعلمون الجزاء ثم قال سبحانه لو تعلمون الجزاء علم اليقين الآن لترون الجحيم يعني تكون الجحيم دائما في نظركم لاتغيب عنكم وهو كما ترى ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ تكرير للتأكيد وثم للدلالة على الابلغية وجوز أن تكون الرؤية الاولى اذا رأتهم من بعيد والثانى اذا وردوها أو اذا دخلوها أو الاولى اذا وردوها والثانية اذا دخلوها أو الاولى المعرفة والثانية المشاهدة والمعاينة وقيل يجوز أن يكون المراد لترون الجحيم غير مرة اشارة الى الخلود وهذا نحو التثنية في قوله تعالى فارجع البصر كرتين وهو خلاف الظاهر جدا ﴿ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين فان الانكشاف بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات فهو أحق بأن يكون عين اليقين فعين بمعنى النفس مثله في نحو جاء زيد نفسه وهو صفة مصدر مقدر أي رؤية عين اليقين والعامل فيه لترونها وجوز أن يكون متنازعا فيه للفعلين قبله وفي اطلاقه كلام لا أظنه يخفى عليك واليقين في اللغة على ما قال السيد السند العلم الذى لاشك فيه وفي الاصطلاح اعتقاد الشيء انه كذا مع اعتقاد انه لايمكن الا كذا اعتقادا مطابقا للواقع غير ممكن الزوال وقال الراغب اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية واخواتها يقال علم يقين ولا يقال معرفة يقين وهو سكون النفس مع ثبات الفهم وفسر السيد اليقين بما سمعت ونقل عن أهل الحقيقة عدة تفسيرات فيه وعلم اليقين ما أعطاه الدليل من ادراك الشيء على ماهو عليه وعين اليقين ما أعطاه المشاهدة والكشف وجعل وراء ذلك حق اليقين وقال على سبيل التمثيل علم كل عاقل بالموت علم اليقين واذا عاين الملائكة عليهم السلام فهو عين اليقين واذا ذاق الموت فهو حق اليقين ولهم غير ذلك ومبنى أكثر ماقالوه على الاصطلاح فلا تغفل وقرأ ابن عامر والكسائي لترون بضم التاء وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن كثير في رواية وعاصم كذلك بفتحها في لترون وضمها في لترونها ومجاهد وأشهب وابن أبي عبلة بضمها فيهما وروى عن الحسن وأبي عمرو بخلاف عنهما أنهما همزا الواوين ووجه بانهم استثقلوا الضمة على الواو فهمزوا للتخفيف كما همزوا في وقت وكان القياس ترك الهمز لان الضمة حركة عارضة لالتقاء الساكنين فلا يعتد بها لكن لما لزمت الكلمة بحيث لاتزول أشبهت الحركة الاصلية فهمزوا وقد همزوا من الحركة العارضة التي تزول في الوقف نحو اشتروؤا الضلالة فالهمز من هذه أولى ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قيل الخطاب للكفار وحكى ذلك عن الحسن ومقاتل واختاره الطيبي والنعيم عام لكل مايتلذذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب وكذا قيل في الخطابات السابقة وقد روى عن ابن عباس انه صرح بان الخطاب في لترون الجحيم للمشركين وحملوا الرؤية عليه على رؤية الدخول وحملوا السؤال هنا على سؤال التقريع والتوبيخ لما أنهم لم يشكروا ذلك بالايمان به عز وجل والسؤال قيل يجوز أن يكون

بعد رؤية الجحيم ودخولها كما يسئلون كذلك عن أشياء أخر على مايؤذن به قوله تعالى كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير وقوله سبحانه ماسلككم في سقروذلك لانه اذ ذاك أشد ايلاما وأدعى للاعتراف بالتقصير فثم على ظاهرها وأن يكون في موقف الحساب قبل الدخول فتكون ثم للترتيب الذكرى وقيل الخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه والنعيم مخصوص بماشغله عن ذلك لظهور أن الخطاب في ألهاكم الخ للملهين فيكون قرينة على ما ذكر وللنصوص الكثيرة كقوله تعالى قل من حرم زينة الله وكلوا من الطيبات وهذا أيضا يحمل السؤل على سؤال التوبيخ ويدخل فيماذكر الكفار وفسقة المؤمنين وقيل الخطاب عام وكذا السؤال يعم سؤال التوبيخ وغيره والنعيم خاص واختلف فيه على أقوال فاخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود مرفوعا هو الامن والصحة وأخرج البيهقى عن الامير على كرم الله تعالى وجهه قال النعيم العافية وأخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء مرفوعا أكل خبز البر والنوم في الظل وشرب ماء الفرات مبردا وأخرج ابن جرير عن ثابت البنانى مرفوعا النعيم المسؤل عنه يوم القيامة كسرة تقوته وماء يرويه وثوب يواريه وأخرج الخطيب عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يفسره قال الخصاف والماء وفلق الكسر وروى عنه وعن جابر أنه ملاذ الماكول والمشروب وقال الحسين بن الفضل هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ويروى عن جابر الجعفى من الامامية قال دخلت على الباقر رضى الله تعالى عنه فقال مايقول أرباب التاويل في قوله تعالى لتسئلن يومئذ عن النعيم فقلت يقولون الظل والماء البارد فقال لو أنك ادخلت بيتك أحدا وأقعدته فى ظل وسقيته اتمن عليه قلت لا قال فالله تعالى أكرم من ان يطعم عبده ويسقيه ثم يساله عنه قلت ماتاويله قال النعيم هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنعم الله تعالى به على أهل العالم فاستنقذهم به من الضلالة اماسمعت قوله تعالى لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا ومن رواية العياشى من الامامية ايضا ان ابا عبد الله رضى الله تعالى عنه قال لابى حنيفة رضى الله تعالى عنه في الآية مالنعيم عندك يانعمان فقال القوت من الطعام والماء البارد فقال ابو عبدالله لئن أوقفك الله تعالى بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها أو شربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه فقال أبو حنيفة فما النعيم قال نحن أهل البيت النعيم أنعم الله تعالى بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعدان كانوا مختلفين وبنا ألف الله تعالى بين قلوبهم وجعلهم اخوانا بعد ان كانوا أعداء وبنا هداهم الى الاسلام وهو النعمة التى لا تنقطع والله تعالى سائلهم عن حق النعيم الذى انعم سبحانه به عليهم وهو محمد وعترته عليه وعليهم الصلاة والسلام وكلا الخبرين لاأرى لهما صحة وفيهما ماينادى عن عدم صحتهما كما لايخفى على من ألقى السمع وهو شهيد والحق عموم الخطاب والنعيم بيد أن المؤمن لايثرب عليه في شىء ناله منه في الدنيا بل يسئل غير مثرب وانما يثرب على الكافر كما ورد ذلك في حديث رواه الطبرانى عن ابن مسعود ويدل على عموم الخطاب ما أخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وآخرون عن أبى هريرة قال خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم فاذا هو بابى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فقال ماأخرجكما من بيوتكما هذه الساعة قالا الجوع يارسول الله قال والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما فقوموا فقاموا معه عليه الصلاة والسلام فاتى رجلا من الانصار فاذا هو ليس فى بيته فلما رأته صلى الله تعالى عليه وسلم المرأة قالت مرحبا فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اين فلان قالت انطلق يستعذب لنا الماء اذ جاء الانصارى فنظر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبيه فقال الحمد لله ماأحد اليوم أكرم أضيافا منى فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر فقال كلوا من هذا وأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اياك والحلوب فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك

المذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لابى بكر وعمر والذى نفسى بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة وفى رواية ابن حبان وابن مردويه عن ابن عباس أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبيه انطلقوا الى منزل أبى أيوب الانصارى فقالت امرأته مرحبا بنبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه فجاء أبو أيوب فقطع عذقا فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما أردت ان تقطع لنا هذا ألا جنيت من تمره قال أحببت يارسول الله ان تأكلوا من تمره وبسره ورطبه ثم ذبح جديا فشوى نصفه وطبخ نصفه فلما وضع بين يدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ من الجدى فجعله فى رغيف وقال ياأبا أيوب ابلغ هذا فاطمة رضى الله تعالى عنها فانها لم تصب مثل هذا منذ أيام فذهب به أبو أيوب الى فاطمة رضى الله تعالى عنها فلما أكلوا وشبعوا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خبز ولحم وتمر وبسر ورطب ودمعت عيناه عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده ان هذا لهو النعيم الذى تسئلون عنه قال الله تعالى ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم فهذا النعيم الذى تسئلون عنه يوم القيامة فكبر ذلك على أصحابه فقال عليه الصلاة والسلام بلى اذا أصبتم مثل هذا فضربتم بأيديكم فقولوا بسم الله فاذا شبعتم فقولوا الحمد لله الذى أشبعنا وأنعم علينا وأفضل فان هذا كفاف بذاك وليس المراد فى هذا الخبر حصر النعيم مطلقا فيما ذكر بل حصر النعيم بالنسبة الى ذلك الوقت الذى كانوا فيه جياعا وكذا فيما يصح من الاخبار التى فيها الاقتصار على شىء أو شيئين أو أكثر فكل ذلك من باب التمثيل ببعض أفراد خصت بالذكر لامر اقتضاه الحال ويؤيد ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى غير رواية عند ذكر شىء من ذلك هذا من النعيم الذى تسئلون عنه بمن التبعيضية وفى التفسير الكبير الحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر عن جميع النعم سواء كان مالا بد منه أولا لان كل ما يهب الله تعالى يجب أن يكون مصروفا الى طاعته سبحانه لا الى معصيته عز وجل فيكون السؤال واقعا عن الكل ويؤكده قوله عليه الصلاة والسلام لا تزول قدما العبد حتى يسئل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم ابلاه وعن ماله من اين اكتسبه وفيم انفقه وعن علمه ماذا عمل به لان كل نعيم داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام ويشكل عليه ما أخرجه عبد الله بن الامام احمد فى زوائد الزهد والديلمى عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث لا يحاسب بهن العبد ظل خص يستظل به وكسرة يشد بها صلبه وثوب يوارى به عورته وأجيب بانه ان صح فالمراد لا يناقش الحساب بهن وقيل المراد ما يضطر العبد اليه من ذلك لحياته فتامل ورأيت فى بعض الكتب أن الطعام الذى يؤكل مع اليتيم لا يسئل عنه وكان ذلك لان فى الاكل معه جبراً لقلبه وازالة لوحشته فيكون ذلك بمنزلة الشكر فلا يسئل عنه سؤال تقريع وفى القلب من صحة ذلك شىء والله تعالى أعلم

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية، في قول جميع المفسرين. وروى البخاري أنها مدنية. وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾.

[٢] ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ﴿ألهاكم﴾ شغلكم. قال:

فَـأَلْهَيْتُهـا عـن ذِي تَمـائـم مُغْيـل[1]

أي شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى مِتم ودفنتم في المقابر. وقيل: ﴿أَلْهَاكُمْ﴾: أنساكم. ﴿التكاثُرُ﴾ أي من الأموال والأولاد، قاله ابن عباس والحسن. وقال قتادة: أي التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة. يقال: لَهِيت عن كذا (بالكسر) أَلْهَى لهِيًا ولِهْيَاناً: إذا سلوت عنه، وتركت ذكره، وأضربت عنه. وألهاه: أي شغله. ولهَّاه به تلهية أي عَلَّله. والتكاثر: المكاثرة. قال مقاتل وقتادة وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلَّالاً. وقال ابن زيد: نزلت في فخِذ من الأنصار. وقال ابن عباس ومقاتل والكلبيّ: نزلت في حَيَّيْن من قريش: بني عبد مَناف، وبني سَهْم، تعادُّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حيّ منهم نحن أكثر سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر عائذاً، فكَثَرَ بنو عبد مناف سهماً. ثم تكاثروا بالأموات، فكَثَرَتْهُمْ سَهْم، فنزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التكاثرُ﴾ بأحيائكم فلم ترضَوا

---

(١) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس، وصدره:

فمثلـك حبلـى قـد طـرقـت ومـرضـع

ويروى: «تمام محول»، أي قد أتى عليه الحول. و «المغيل»: الذي تؤتى أمه وهي ترضعه.

﴿حتى زرتم المقابر﴾ مفتخرين بالأموات. وروى سعيد عن قتادة قال: كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدّ من بني فلان؛ وهم كلَّ يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كُلُّهم. وعن عمرو بن دينار: حلف أن هذه السورة نزلت في التجار. وعن شيبان عن قتادة قال: نزلتْ في أهل الكتاب.

قلت: الآية تَعُمّ جميع ما ذكر وغيره. وفي «صحيح مسلم» عن مُطَرِّف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التكَاثُر﴾ قال: «يقولُ ٱبنُ آدم: مالي مالي! وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ، أو لبستَ فأبلَيتَ، أو تصدّقْتَ فأمضيت [وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناس][1]. وروى البخاريّ عن ٱبن شهاب: أخبرني أَنَس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب، لأحب أن يكون له واديان، ولَنْ يَمْلأَ فاه إلاّ الترابُ، ويتوبُ اللَّهُ على من تابَ». قال ثابت عن أنس عن أبيّ: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ﴾. قال ٱبن العربيّ: وهذا نصّ صحيح مليح، غاب عن أهل التفسير فجهِلوا وجَهَّلوا، والحمد لله على المعرفة. وقال ٱبن عباس: قرأ النبي ﷺ ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ﴾ قال: «تكاثُرُ الأموال: جمعها من غير حقها، ومنعها من حقها، وشدّها في الأوعية».

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿حتى زُرْتُمُ المَقابِرَ﴾ أي حتى أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زوّاراً، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبره. وقيل: أي ألهاكم التكاثر حتى عددتم الأموات؛ على ما تقدّم. وقيل: هذا وعيد. أي اشتغلتم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فتَرَوْا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿المَقَابِر﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة (بفتح الباء وضمها). والقبور: جمع القبر؛ قال:

---

(١) ما بين المربعين من رواية أبي هريرة في سند آخر، لا من رواية مطرف (راجع صحيح مسلم).

أَرَى أَهْلَ القُصُورِ إذا أُمِيتُوا ... بَنَوْا فوقَ المقابرِ بالصُّخورِ
أَبَوْا إلا مُباهاةً وفَخْرًا ... على الفقراءِ حتّى في القُبورِ

وقد جاء في الشعر (المَقْبَر)؛ قال:

لكلِ أناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنائهم ... فَهُمْ يَنقُصُونَ والقُبورُ تَزِيدُ[1]

وهو المَقْبُرِيّ والمقْبَرِيّ: لأبي سعيد المقبُرِيّ[2]؛ وكان يسكن المقابر. وقَبَرت المَيتَ أَقْبِرُهُ وأقبِرُهُ قبراً، أي دفنته. وأقبرته أي أمرت بأن يقبر. وقد مضى في سورة ﴿عَبَس﴾ القول فيه[3]. والحمد لله.

الرابعة ـ لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة. وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة. وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها. قال النبيّ ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكِّر الآخرة» رواه ابن مسعود؛ أخرجه ابن ماجه. وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «فإنها تذكر الموت». وفي الترمذيّ عن بُرَيْدة: «فإنها تذكِّر الآخرة». قال: هذا حديث حسن صحيح. وفيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور. قال: وفي الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت. قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح. وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبيّ ﷺ في زيارة القبور؛ فلما رَخَّص دخل في رخصته الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صَبْرهن، وكثرة جَزَعِهِنّ.

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء. أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهنّ ذلك. وجائز لجميعهن. ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال؛ ولا يختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: «زوروا القبور» عاماً. وأمّا مَوْضعٌ أو وقتٌ يُخْشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز.

---

(١) ذكر البيت صاحب تاج العروس مع بيت بعده، (قبر) ونسبهما إلى عبد الله بن ثعلبة الحنفي.
(٢) قال ابن قتيبة في «المعارف»: أبو سعيد المقبري: اسمه كيسان روى عن عمر. وتوفي سنة مئة.
(٣) راجع ١٩/٢١٧.

فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن، وبالعكس؛ فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزوراً غير مأجور. والله أعلم.

الخامسة ـ قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم[1] اللذات، ومفرق الجماعات، ومُوتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرِين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من احتُضِر، وزيارة قبر من مات من المسلمين مُعايَنةٌ ومشاهدة؛ فلذلك كان أبلغ من الأول؛ قال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة». رواه ابن عباس. فأما الاعتبار بحال المحتَضَرِين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدّب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويُسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضاً، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حيا، ولو خاطبه حيا لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك هاهنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه. فليتأمّل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودَرَجَ من

---

(١) هاذم (بالذال المعجمة) بمعنى قاطع؛ والمراد الموت؛ إما لأن ذكره يزهد فيها، وإما لأنه إذا جاء لا يبقى من لذائذ الدنيا شيئاً.

أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال؛ كيف أنقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وأفترقت في القبور أجزاؤهم، وترمّل من بعدهم نساؤهم، وشَمِل ذُلُّ اليتم أولادهم، وأقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم. وليتذكر تردّدهم[١] في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وأنخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب. وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بدّ صائر إلى مصيرهم، ولْيُحضر بقلبه ذِكر من كان متردّدا في أغراضه، وكيف تهدّمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خُوِّلَه وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدودلسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله. وعند هذا التذكُّر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه.

[٣] ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣﴾.

[٤] ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفرّاء: أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا ﴿كلا سوف تعلمون﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا. ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾: وعِيد بعد وعيد؛ قاله مجاهد. ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قول الفرّاء. وقال أبن عباس: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر. ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ في الآخرة إذا حل بكم العذاب. فالأوّل في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرار للحالتين. وقيل: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ عند المعاينة، أن ما دعوتكم إليه حق. ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾: عند البعث، أن ما وعدتكم به صدق. وروى زِرُّ بنُ حُبَيْشٍ عن عليّ رضي الله عنه، قال: كنا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة، فأشار إلى أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني في القبور. وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ

(١) في نسخة: «تزوّدهم المآب».

تعلمون﴾: إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رُسُلٌ لِتَنْزِع أرواحكم. ﴿ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمون﴾: إذا دخلتم قبوركم، وجاءكم مُنْكَر ونَكِير، وحاط بكم هول السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر. وقد ذكرنا في كتاب «التذكرة» أن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم؛ حَسْبَمَا أخبَر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلَّف في قبره، بردّ الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يُسأَل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أُعدّ له في قبره، من كرامة وهوانٍ. وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة. وقد ذكرناه هناك مستوفى، والحمد لله. وقيل: ﴿كَلاَّ سوف تعلمون﴾ عند النشور أنكم مبعوثون ﴿ثمّ كلا سوف تعلمون﴾ في القيامة أنكم معذبون. وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحَشْر، وسؤال وعَرْض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها؛ حسب ما ذكرناه في كتاب «التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة». وقال الضحاك: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُون﴾ يعني الكفار، ثم كَلاَّ سَوْفَ تعلمون: قال المؤمنون. وكذلك كان يقرؤها، الأولى بالتاء والثانية بالياء.

[٥] ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلمَ اليقينِ﴾ أعاد ﴿كَلاَّ﴾ وهو زجر وتنبيه، لأنه عقَّب كل واحد بشيء آخر؛ كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب. وإضافة العلم إلى اليقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليقينِ﴾[1]. وقيل: اليقين هاهنا: الموت؛ قاله قتادة. وعنه أيضاً: البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك، أي لو تعلمون علم البعث. وجواب ﴿لو﴾ محذوف؛ أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت اللُّحود عن جُثَثكم، كيف يكون حَشْركم؟ لشغلَكُم ذلك عن التكاثر بالدنيا. وقيل: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمونَ عِلمَ اليَقِينِ﴾ أي لو[2] قد تطايرتِ الصحف، فشقِيٌّ وسعيدٌ.

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة. (٢) كذا في نسخ الأصل.

وقيل: إن ﴿كَلَّا﴾ في هذه المواضع الثلاثة بمعنى ﴿أَلَا﴾ قاله ابن أبي حاتم، وقال الفرّاء: هي بمعنى ﴿حَقًّا﴾ وقد تقدّم الكلام فيها مستوفى(١).

[٦] ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾.

[٧] ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذا وعيد آخر. وهو على إضمار القسم؛ أي لترون الجحيم في الآخرة. والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار. وقيل: هو عام؛ كما قال: ﴿وإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها﴾(٢)، فَهُيِّىءَ للكفار دار، وللمؤمنين ممر، وفي «الصحيح»: «فيمرّ أوّلهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير...» الحديث. وقد مضى في سورة ﴿مريم﴾(٣). وقرأ الكسائيّ وابن عامر ﴿لَتُرَوُنَّ﴾ بضم التاء، من أريته الشيء؛ أي تحشرون إليها فترونها. وعلى فتح التاء؛ هي قراءة الجماعة؛ أي لَترون الجحيم بأبصاركم على البعد. ﴿ثم لَترونّها عين اليقِينِ﴾ أي مشاهدة. وقيل: هو إخبار عن دوام مُقامهم في النار؛ أي هي رؤية دائمة متصلة. والخطاب على هذا للكفار. وقيل: معنى ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلمَ اليقِينِ﴾ أي لو تعلمون اليوم في الدنيا، علم اليقين فيما أمامكم، مما وصفت: ﴿لَتَرَوُنَّ الجحِيمَ﴾ بعيون قلوبكم؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك؛ وهو أن تَتَصَوَّر لك تارات القيامة، وقطع مسافاتها. ﴿ثم لَترونّها عينَ اليقِينِ﴾: أي عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقينا، لا تغيب عن عينك. ﴿ثم لَتُسْأَلُنَّ يومَئِذٍ عن النَّعِيمِ﴾: في موقف السؤال والعرض.

[٨] ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عنِ النعِيم﴾ روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر؛ فقال: «ما أَخْرجَكما من بُيوتِكما هَذِه الساعةَ»؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا

---

(١) راجع ١١/١٤٧ فما بعدها. (٢) آية ٧١ سورة مريم. (٣) راجع ١١/١٣٧.

والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما؛ قُوما» فقاما معه؛ فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مَرْحَباً وأهْلاً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان»؟ قالت: يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاريّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحِبيه، ثم قال: الحمد لله! ما أحدٌ اليومَ أكرم أضيافا مني. قال: فأنطلق، فجاءهم بِعِذْقٍ فيه بُسْر وتمر ورُطَب، فقال: كلوا من هذه. وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياكَ والحَلُوبَ» فذبح لهم؛ فأكَلُوا من الشَّاة، ومن ذلك العِذق، وشرِبوا؛ فلما أن شبِعوا ورَوُوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لَتُسْألُنَّ عن نعيم هذا اليوم، يومَ القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم». خرجه الترمذيّ، وقال [فيه]: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة: ظِلٌّ بارد، ورُطَب طَيِّب، وماءٌ بارد» وكَنَّى الرجل الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بن التَّيهان. وذكر قصته.

قلت: اسم هذا الرجل الأنصاريّ مالك بن التيهان، ويكنى أبا الهيثم. وفي هذه القصة يقول عبد الله بن رواحة، يمدح بها أبا الهيثم بن التَّيهان:

فَلَمْ أرَ كالإسلامِ عِزا لأُمَّةٍ ... ولا مِثلَ أضيافِ الإراشيّ[1] مَعْشَرَا
نبيّ وصِدِّيقٌ وفاروق أمّةٍ ... وخير بني[2] حوّاء فرْعا وعُنْصُرا
فوافَوْا لمِيقاتٍ وقَدْرِ قَضيةٍ ... وكان قضاء الله قَدْرا[3] مُقَدَّرَا
إلى رجلٍ نَجْدٍ يُباري بِجودِهِ ... شُموسَ الضُّحَى جودا ومجدا ومَفخَرا
وفارِسِ خلقِ الله في كل غارةٍ ... إذا لبِس القومُ الحديدَ المُسَمَّرا
فَفَدَّى وحَيّا ثم أدْنَى قِراهُمُ ... فلَمْ يَقْرِهِمْ إلاّ سَمِينا مُتَمَّرَا[4]

---

(١) .كذا في جميع نسخ الأصل.
(٢) في نسخة من الأصل: «وخير نبي جاء».
(٣) في نسخة من الأصل: «أمرا».
(٤) المقطع.

وقد ذكر أبو نعيم الحافظ، عن أبي عسيب مولى رسولِ الله ﷺ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلا، فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه، فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه، فخرج إليه فأنطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أطعمنا بُسْرا» فجاء بعِذْق، فوضعه فأكلوا، ثم دعا بماء فشرب، فقال: «لَتُسْأَلُنّ عن هذا يومَ القيامة» قال: وأخذ عمر العِذْق، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر نحو وجه رسول الله ﷺ؛ قال: يا رسول الله، إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «نعم إلا من ثلاث: كِسرة يَسُدّ بها جَوْعَته، أو ثوب يستر به عَوْرته، أو جُحْرٍ يأوى فيه من الحرّ والقُرِّ».

وآختلف أهل التأويل في النعيم المسؤول عنه على عشرة أقوال:

أحدها ـ الأمن والصحة؛ قاله آبن مسعود. **الثاني** ـ الصحة والفراغ؛ قاله سعيد بن جبير. وفي البخاريّ عنه عليه السلام: «نعمتان[1] مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». **الثالث** ـ الإدراك بحواس السمع والبصر؛ قاله آبن عباس. وفي التنزيل: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أُولئِك كان[2] عنه مسؤولا﴾ وفي «الصحيح» عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً، ومالاً وولداً...»، الحديث. خرجه الترمذيّ وقال فيه: حديث حسن صحيح. **الرابع** ـ ملاذ المأكول والمشروب؛ قاله جابر بن عبد الله الأنصاري. وحديث أبي هريرة يدل عليه. **الخامس** ـ أنه الغداء والعشاء؛ قاله الحسن. **السادس** ـ قول مكحول الشامي ـ: أنه شِبَع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، وآعتدال الخُلق، ولذة النوم. ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿لَتُسْأَلُنّ يومئِذٍ عَنِ النعِيم﴾: يعني عن شبع البطون...». فذكره. ذكره الماوردي، وقال: وهذا السؤال يعمّ الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن

---

(١) أي ذو خسران فيهما. والنعمة: ما يتنعم به الإنسان ويستلذه. والغبن: أن يشتري بأضعاف الثمن. أو يبيع بدون ثمن المثل، فمن صح بدنه، وتفرغ من الأشغال العائقة، ولم يسع لصلاح آخرته، فهو كالمغبون في البيع. والمقصود: بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ، بل يصرفونهما في غير محالهما. (عن شرح سنن ابن ماجه).

(٢) آية ٣٦ سورة الإسراء.

تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة. وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية. وقال قوم: هذا السؤال عن كل نعمة، إنما يكون في حق الكفار، فقد رُوي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله، أرأيتَ أكلةً أكلتُها معك في بيت أبي الهيثم بن التَّيِّهان، من خبز شعير ولحم وبُسْر قد ذَنَّب[1]، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال عليه السلام: «ذلك للكُفار، ثم قرأ: ﴿وهل يُجازَى إلا الكفور﴾»[2]. ذكره القشيريّ أبو نصر. وقال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار. وقال القشيري: والجمع بين الأخبار: أن الكل يُسْألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ، لأنه قد ترك الشكر وسؤال المؤمن سؤال تَشْريف، لأنه شَكَر. وهذا النعيم في كل نعمة.

قلت: هذا القول حسن، لأن اللفظ يعم. وقد ذكر الفِرْيابي قال: حدّثنا ورقاء عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ثم لَتُسأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عنِ النَّعِيم﴾ قال: كل شيء من لذة الدنيا. وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى لَيُعَدِّد نعمه على العبد يوم القيامة، حتى يَعُدَّ عليه: سألتني فلانة أن أزوّجكها، فيسميها باسمها، فزوجتكها». وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثم لَتُسْأَلُنّ يومئِذٍ عنِ النعِيم﴾ قال الناس: يا رسول الله، عن أي النعيم نُسْأل؟ فإنما هما الأسودان[3] والعدوّ حاضر، وسيوفنا على عواتقنا. قال: «إن ذلك سيكون». وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن أوّل ما يسأل عنه يوم القيامة ـ يعني العبد ـ أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك جسمك، ونُروِيكَ من الماء البارد» قال: حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده، فيوقفه بين يديه، فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله». والجاه من نعيم الدنيا لا محالة. وقال مالك رحمه الله: إنه صحة البدن، وطيب النفس. وهو القول السابع. وقيل: النوم مع الأمن والعافية. وقال سفيان بن عيينة: إن ما سَدَّ الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس، لا يُسأل عنه المرء يوم القيامة، وإنما يُسأل عن النَّعيم. قال: والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة. فقال له: ﴿إنّ لك ألاَّ تجوع فِيها ولا تَعْرَى.

---

(١) أي بدأ فيه الإرطاب. (٢) آية ١٧ سورة سبأ، وهذه قراءة نافع.

(٣) الأسودان: التمر والماء.

وأَنَّكَ لا تَظمَأُ فِيها[١] ولاَ تَضْحَى﴾. فكانت هذه الأشياء الأربعة ـ ما يُسدّ به الجوع، وما يُدفع به العطش، وما يَسْتَكِنُّ فيه من الحر، ويَسْتُر به عَورته ـ لآدم عليه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها، لأنه لا بدّ له منها.

قلت: ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر، قال: إن مما لا يسأل عنه العبد لباسا يواري سوأته، وطعاما يقيم صُلْبه، ومكانا يُكنه من الحرّ والبرد.

قلت: وهذا منتزع من قوله عليه السلام: «ليس لابن آدمَ حَقٌّ في سِوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجِلْف الخبز والمَاء» خرجه الترمذيّ. وقال النضر بن شُميل: جِلف الخبز: ليس معه إدام. وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ. وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رسولاً مِن أنفسِهِم﴾[٢]. وقال الحسن أيضاً والمفضّل: هو تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن، قال الله تعالى: ﴿ومَا جَعَلَ عَلَيكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ولَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذكرِ فهل مِن مُدَّكِر﴾[٤].

قلت: وكل هذه نعِم، فيسأل العبد عنها: هل شكر ذلك أم كفر. والأقوال المتقدمة أظهر. والله أعلم.